

كتاب البرهان في وجوه البيان

للدكتور علي حسن عبد القادر

« تصحيح خطأ علمي، وتحقيق شخصية كتاب،
ورد اعتبار على مؤلف طمئني على اسمه الزمان »

كتاب « البرهان في وجوه البيان » لأبي الحسين إسحاق ابن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم « نقد النثر »، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين، والأستاذ عبد الحميد العبادي، منسوباً إلى أبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ. وقد اعتمد مخرجا « نقد النثر » على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٢ من فهرس درينبرغ. وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تستربريتي رقم G767 تحت عنوان « كتاب البرهان في وجوه البيان »، وعند المقابلة بينها وبين كتاب « نقد النثر » المطبوع وجدناهما يتفقان في القدر المطبوع، وتزيد المخطوطة التي بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثي الكتاب تقريباً. ولم نشك في أن هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلي من الكتاب قد سقط منه في المخطوطة الأمكوريالية، وذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه للبيان :-

البيان الأول الاعتبار، البيان الثاني الاعتقاد، البيان الثالث العبارة، البيان الرابع الكتاب. والبيان الرابع (الذي هو الكتاب) غير موجود في النسخة المطبوعة، وقد علل محقق هذه النسخة المتبورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب. وجعل بهذه الدعوى الكتاب كاملاً بذاته، وهي دعوى قد قرضا المحقق على الكتاب قرضاً وجزم بها من غير فحص له،

وأغاب الظن أن مشكلة الطاقة الذرية ستظل شوكة في حلق هيئة الأمم - وستهاد إلى لجنة الطاقة الذرية لتبحث فيها من جديد لعلها تقنع الدول الكبرى المتنافسة بأن تتفق على حماية نفسها من وبل هذه الذرة الجهنمية.

عمر هليوس

(نيويورك)

سكرتير معهد الشؤون العربية الأمريكية بنيويورك

فإنه لو كان قد فحص الجزء الذي بيده من الكتاب لرأى أن المؤلف قد نبه في أثناء الكتاب على أشياء سيذكرها بعد، ومع ذلك لم يأت لها ذكر. فمن ذلك قول المؤلف (صفحة ١١٨ من طبعة دار الكتب) : « وأما الحديث، فهو ما يجري بين الناس في مخاطبتهم ومنافلاتهم وبجالسهم، وله وجوه كثيرة : فمنها الجدل والهزل والسخف والجزل، والحسن والقبیح والملاحون والقصيح، والخطأ والصواب والصدق والكذب والنافع والضار والحق والباطل والناقص والتمام والمردود والمقبول والمهم والقضول والبلغ واليبي؛ ثم جاء الكلام بعد ذلك عن الجد والهزل والسخيف والجزل والحسن والقبیح والملاحون والقصيح والخطأ والصواب؛ ولكن القول في الخطأ والصواب لم يتم، كما أن القول في الصدق والكذب والوجوه الأخرى الباقية لم يأت قط. ومن أمثلة ذلك أيضاً ما جاء في باب تأليف العبارة (ص: ٤٥ - ٤٥ من طبعة دار الكتب) : « وقد ذكر الخليل وغيره من أوزان الشعر وقوافيه ما يفنى من نظريتها... إلا أنا نذكر جملة من ذلك في باب استخراج المعنى تدهم والضرورة إلى ذكرها فيه إن شاء الله ». وليس في نقد النثر كما نشر أي ذكر أو إشارة إلى باب المعنى وذكر العروض والقافية. ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه جاء في آخر النسخة المطبوعة هذه العبارة : « وأما مراتب القول ومراتب المستمعين له، فقد تقدم القول فيه وبالله التوفيق ».

وإذا تصفحنا كل ما جاء في النسخة المطبوعة لم نجد ذكراً أو إشارة لمراتب القول « ولا لمراتب المستمعين له » على الحقيقة؛ وهذا يظهر أن المخطوطة الأمكوريالية والكتاب كما طبع ناقصان نقصاً كبيراً، وأن محقق الكتاب لم ينتبه إلى هذا النقص الواضح أو لعله أغمض عينيه عن هذا النقص، وتلمس في بعض الأحيان تمللات لا تقوم وقرضاها على الكتاب، بدليل أننا نجد كل هذا المقطوع قد جاء بالنسخة المخطوطة التي بأيدينا، فقد جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب، واستغرق من أصل الكتاب جزءاً كبيراً أصلياً، كما جاء فيها الكلام على باب المعنى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل وان. وكذلك جاء فيها ما بقي من وجوه الحديث وجهاً ووجهاً، وكذلك مراتب القول ومراتب المستمعين له مرتبة مرتبة، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هي النسخة الكاملة للكتاب. ويظهر أن مخطوطة الأسكوريال كانت ناقصة أو نسخت من أخرى ناقصة فزاد كأنها ما يشتر بالتمام وهو قوله

الحراج « ، وهذه النبذ هي الأبواب الثماني والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من المنزلة الخامسة ، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة . واسم هذا الكتاب في هاتين النسختين (الأصلية والمنقولة) « الحراج وصناعة الكتابة » ، وقد وصف ياقوت هذا الكتاب في ترجمة قدامة بقوله : « وله كتاب في الحراج وصناعة الكتابة » ؛ وله كتاب في الحراج رتبته مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه ، وكان على تسع منازل ، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعاً . ويقول الطارزى في كتاب الإيضاح شرح مقامات الحربرى (مخطوطة المتحف البريطانى) « وله تصانيف كثيرة منها كتاب « الألفاظ » وكتاب « نقد الشعر » ، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء ، وقيل هو لوالده جعفر . ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة ، وهو كتاب يشتهل على سبع منازل ، وكل منزلة منها تحوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلاء : « وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة ما نصه : « وله كتاب حسن فى الحراج وصناعة الكتابة » .

ويتضح من كل ذلك أنه كان لقدامة كتاب على منازل كتابنا ، وأن هذا الكتاب يسمى « الحراج وصناعة الكتابة » وأنه كان على تسع منازل أو سبع منازل وفى كل منزلة أبواب . وهذا الوصف لا يتفق مع تنويع كتاب « البرهان » أو « نقد النثر » إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الحراج وصناعة الكتابة ؛ فضلاً عن هذا فنحن إذا قارنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالحراج ألقيناه مختلفاً عن القسم الخاص بالحراج فى كتابنا « البرهان » والنتيجة البديهية هي أن قدامة وأبا الحسين كتب كل منهما كتاباً فى الموضوع ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص فى علاج الموضوع .

ثالثاً - وقد رجح دى غوبه فى مقدمته الفرنسية الكتاب الحراج المستخرج من كتاب قدامة فى صناعة الكتابة أن قدامة ألف كتابه هذا بعد سنة ٣١٦ بقليل ، وذلك أن قدامة تحدث فى أثناء كتابته عن ملبح الأرمنى على أنه معاصر له ، ويشير أيضاً إلى إنارة أسفار الديلى على قزوين فى سنة ٣١٦ ، وإلى الشناعم التى جرت على يد مرداويج وأتباعه فى السنين التالية

« وقد تقدم القول فيه وبالله التوفيق » ، وهى عادة معروفة عند الوراقين كما حصل مثل ذلك فى كتاب الوزراء والكتاب للبيه شيارى مثلاً .

وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر فى أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه (أى أكثر من نصف النص المطبوع) ، بل إن لها أهمية أخرى أكبر من ذلك ، وهى معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق . فقد ذكر المؤلف فى مخطوطتنا اسمه كاملاً فى أثناء كتابته على عادة المؤلفين المتقدمين ، فقال فى أول البيان الرابع ، وهو جزء مفقود من النسخة الأسكوريالية : « قال أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب قد ذكرنا فيما تقدم من كتابنا هذا بنعمة الله ... » . وهو تصريح يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر ، ويضع حداً فاصلاً للنزاع فى مسألة مؤلف الكتاب ، كما أن مخطوطتنا زيادة على هذا تجمل الإسم الصحيح للكاتب ، وهو كتاب « البرهان فى وجوه البيان » .

وإنه وإن كنا لم نثر على اسم هذا الكتاب ، أو اسم مؤلفه المذكوراً فى أى مرجع من المراجع المعروفة عندنا ، فقد وصلنا إلى أن هذا الكتاب ليس لقدامة وتحققنا من نسبته لأبي الحسين ، وليس ذلك فقط من أجل أن المؤلف قد ذكر اسمه فى أثناء كتابته بل من أجل أدلة أخرى مضمومة إلى هذا الدليل :

أولاً : يذكر مؤلف الكتاب فى أثناء كتابته أربعة كتب له ، وهى : الإيضاح ، أسرار القرآن ، التعميد ، الحجية . وهذه الكتب الأربعة لم يذكرها أحد من مؤرخى قدامة فى فهرس كتبه أو ما يشبهها فى الإسم أو الموضوع ، كما أنهم لم يذكروا له كتاباً باسم « البرهان » أو « نقد النثر » .

ثانياً : وقد نسب إلى قدامة كتاب فى الكتابة ، ولكن هذا الكتاب لم يسمه قدامة باسم « البرهان » أو « نقد النثر » وإنما سماه « كتاب الحراج وصناعة الكتابة » ، وهو غير الكتاب الذى بأيدينا ، فإن كتاب قدامة هذا ، أو على الأصح النصف الثانى منه معروف ، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلى بالآستانة ، وقد استنسخ شارل شيفر هذا المجلد الباقي من كتاب قدامة ، وهذه النسخة محفوظة الآن بدار الكتب الوطنية بباريس وقد استخرج دى غوبه نبذاً منها وطبعها تحت عنوان « كتاب

مما جاء من نصوص تاريخية في ثنايا الكتابين .
 رابعا - من الكتب المرفقة على وجه التحقيق لخدمة
 كتابه « نقد الشعر » وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص .
 وقد عالج صاحب « البرهان » في كتابه الشعر أيضا ، فلو أنه
 كان لخدمة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى
 بمثل هذا البيان السكايف ، فضلا عن ذلك فإن معالجة الشعر في
 « البرهان » تختلف اختلافا جوهريا عنها في كتاب « نقد
 الشعر » من الناحية الفنية والموضوعية ، وما تصيد الأستاذ
 المبادئ في تحقيقه من مقارنات إنعما هو مجرد افتراضات لا تقوم
 أمام الفحص . ومما يستحق أن نذكره من المقارنات أن قدامة
 في « نقد الشعر » حينما يسوق أقوال المتقدمين من الفلاسفة
 يذكرها مجملا : « فلاسفة اليونان » ، في حين أن صاحب
 « البرهان » يذكرهم بأسمائهم كأن يقول « قال أرسطوطاليس » .
 خامسا - وقد كان مؤلف « البرهان » فقيها شيعيا من
 غير شك . ودليل ذلك منشور في أثناء الكتاب . فن ذلك
 اهتمامه بنقل أقوال أئمة الشيعة وذكرهم دائما عند كل استشهاد
 بما يشمر بنسبته كقوله « الأئمة عليهم السلام . الأئمة الصادقين .
 الأئمة المستودعين علم القرآن . روى عن الصادق عليه السلام »
 اهتمامه بنقل فقه الشيعة كاملا في تعرضه لأقوال الفقهاء ،
 وترجيحه لأرائهم في بعض الأحيان ظاهرة تدل على تمكنه في
 نحلته الشيعية . وقدامة بن جعفر لم يكن من الشيعة ولا من فقهائهم
 كما هو معروف وكما يدل عليه ما كتبه عن الخراج ، وإنما كان
 نصرانيا في الأصل وأسلم على يد الخليفة السكتفي بالله ، وإذا سلم
 نصراني على يد خليفة عباسي - وذلك إنعما يكون عادة طمعا في
 مناصب الدولة - فن المستبعد أن يصير علويا متشيعا مرة واحدة .
 وما أورده الأستاذ العبادي في توجيه مسحة التشيع الظاهرة في
 الكتاب من أن قدامة قد جرى بنى بويه بعد دخولهم بغداد
 سنة ٣٣٤ رده النقد التاريخي ، وقد كتب قدامة كتابه في
 الكتابة قبل هذا التاريخ بأربعة عشر عاما على الأقل ، ومات بعد
 دخولهم بغداد بوقت قصير .

سادسا - وصاحب كتاب « البرهان » بصرفي كل
 مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب معظما لهم نفورا

لكوادث قريبة الوقوع . ونحن نعلم مما يقوله أبو حيان التوحيدى
 في الإمتاع والمؤانسة (ج ٣ ص ١٤٥ - ١٤٦) أن قدامة
 عرض كتابه هذا في سنة ٣٢٠ على « علي بن عيسى حيث يقول
 » وما رأيت أحدا تنامى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير
 قدامة بن جعفر في المئزلة الثالثة من كتابه . قال لنا علي بن عيسى
 الوزير عرض علي قدامة كتابه سنة ٣٣٠ واختبرته فوجدته قد
 بالغ وأحسن وتفرد في وصف فنون البلاغة في المئزلة الثالثة بما لم
 يشاركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى » . فهذا الكتاب قد
 تم الفراغ من تأليفه قبل سنة ٣٢٠ قطعا . أما كتاب « البرهان »
 فلم يكن موجودا في هذا الوقت ولنا على هذا ثلاثة أدلة .

أ - يقول أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم في البرهان :
 « وقد رأيت شيخنا علي بن عيسى رحمه الله بكتاب أم المقتدر »
 وإشارة أبي الحسين في كتابه إلى وفاة علي بن عيسى تدل قطعا
 على أن علي بن عيسى لم يمض حتى يرى هذا الكتاب ، وقد مات
 علي بن عيسى سنة ٢٣٥ ، وهو أمر يدل على أن أبا الحسين ألف
 كتابه بعد سنة ٣٣٥ .

ب - ويقول أبو الحسين أيضا « ومنه ترجمة لآل مقل
 ولأبي الحسن بن خلف بن طياب رحمه الله » وقد كان أبو الحسن
 ابن خلف هذا حيا إلى سنة ٣٣٠ (راجع أخبار الرضى والمرضى
 للصول ص ٢٣٠ - ٢٣١) .

ج = ويقول أبو الحسين في « البرهان » أيضا مشيرا إلى
 مقتل المقتدر على يد غلامه مؤنس : « وكان نتيجة هذا الإهمال
 رقمرة هذه الأفعال أن خرج السلطان في جيشه على أحسن زينة
 لقتال غلام من غلمانه فقتل وحده من بين أهل عسكره وتفرق
 عنه الباقون ورجعوا موفورين » . وقد حدث هذا في سنة ٣٦٠
 (راجع المنتظم ج ٦ ص ٢٤٣) وأبو الحسين يقص هذه الحادثة
 على أنها قصة معروفة للمبرة وضرب المثل فيها بمسبب ولاية الأمر
 عند إهمالهم ، ولا بد أن تكون قد صرت عليها سنوات أصبحت
 بها مثالا للمظة وضرب الأمثال ، فكتاب لا بد أن يكون قد
 ألف بعد هذا التاريخ .

والنتيجة التي نجمها من كل ذلك هي أن قدامة ألف كتابه
 قبل سنة ٣٢٠ وإن أبا الحسين ألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب

بهم كأن يقول « وقد كان شيخنا أبو علي الحسن بن وهب رحمه الله ... » وقال أبو أيوب رضي الله عنه : « وقد ذكر أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورا بالبلاغة . ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكني وأجزى » وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف .

سابقا — وهناك أمر يجب التنويه إليه وهو أن البطليوسى فى كتابة « الافتضاب شرح أدب الكتاب » قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته فى شرح الكتاب (ص ١٦ — ٩٠) وهذه الفصول تتفق فى لفظها فى معظم الأحيان تمام الاتفاق مع بعض فصول كتاب البرهان ، وفى بعض الأحيان تتفق معها مع تعديل طفيف ، ولكن البطليوسى لم ينسبها إلى أبى الحسين ولا إلى قدامة ، وإنما أشعر بنسبتها إلى على بن مقلة (المتوفى سنة ٣٢٧) ، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب « البرهان » هو لابن مقلة ، وأن البطليوسى نقل عنه بعد أن أثبتنا أن « البرهان » ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين ، كما أن شيوخ صاحب « البرهان » كما جاء ذكرهم « بالبرهان » لم يكونوا شيوخا لعلى بن مقلة ولم تكن له بهم صلة قريبة ولم يكن على بن مقلة شيعيا . والقدر المتيقن أن البطليوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا . ومن المحتمل أن يكون « البرهان » قد نسب مرة إلى على بن مقلة كما نسب إلى قدامة ابن جعفر وجهل أمر صاحبه . ومن المحتمل أيضا أن يكون البطليوسى ومؤلف كتابنا هذا من قبل كلامها قد نقل نقولا من كتاب لابن مقلة فى هذا الموضوع ، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه .

وجملة القول أن مؤلف كتاب « البرهان » يجب أن تتوفر فيه من الشرائط :

(١) كونه شيعيا . (٢) أن يجتمع أوامر القربى بأل وهب . (٣) أن يكون قد أُلّف بعد سنة ٣٣٥ . (٤) ألا تزيد أبواب كتابه على أربعة أبواب كاملة .

وهذه الأحوال لا تجتمع فى قدامة بن جعفر ، ولكنها يمكن أن تجتمع فى مؤلف آخر . وفى بدنا مخطوطة قديمة كاملة

للكتاب ذكر المؤلف فيها اسمه فى متن الكتاب ، هكذا « أبو الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب » فنحن على أن نسب الكتاب إليه إلى أن يظهر لنا خلاف ذلك . ولم نجد ذكرا لهذا الكتاب أو مؤلفاته فى المراجع والمطالع المعروفة لنا . ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة ابن جعفر فى طرة المخطوطة الإسكويرالية ، وكذلك فى طرة المخطوطة التى بأيدينا مع ورود اسم المؤلف فى أثناء الكتاب وهو أمر غفل عنه الناسخ ، وتفسير هذا التناقض يسير ، فإن الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الأدب فلا يستبعد عليهم أن يضموا اسمه على هذا الكتاب لتسهيل بيمة وتداوله ، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين لا تخفى على المحققين . ونذكر مثلا قريبا لذلك كتاب « أسرار البلاغة » نشر بمصر وجاء فى خاتمة الكتاب أن مؤلفه أتمه فى سنة ٨٥٥ ومع ذلك نسب فى طرة الكتاب ليهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٠٣ وعرف باسمه لدى الوراقين . وفى كتب الفهارس ، وغير ذلك كثير .

وبعد فإنصافا للعلم والملاء ، وإنصافا لأنفسنا كذلك ، لا يسمنا إلا أن ننوه فى ختام هذه الكلمة بأن عالين جليلين كانا قد أظهرنا الشك فى نسبة كتاب « نقد النثر » إلى قدامة بن جعفر ، وأنه لا بد أن يكون لكتاب آخر مجهول من أهل القرن الرابع . وهذان العالمان الناشلان هما الدكتور طه حسين بك والأستاذ محمد كرد على ، فاستحقا منا التقدير والثناء . وهاتين أولاء قد قننا بما تولى علينا الأمانة العلمية بتقديم أدلتنا على أن الكتاب اسمه « البرهان » وأنه من تأليف أبى الحسين إسحق بن إبراهيم ابن سليمان بن وهب الكاتب ، وأن الجزء الذى نشر منه تحت اسم « نقد النثر » ليس إلا نحو تلك الكتاب الأصيل الذى قد حررناه وتقدمه للطبع الآن ليكون بين أيدى العلماء فى القريب إن شاء الله ليصبح موضع بحثهم وتقدم .

ولست أنسى هنا أن أتقدم للعلماء الأستاذ العالم مجتهدى مينوى بلندن زميلى فى تحقيق هذا الكتاب وإعداده للنشر ، فهو يشاركنى مسئولية إخراج الكتابات بما يتبها من قبول أو نقد .

(المركز الثقافي الاسلامى بلندن) على حسن عبر القادر